

الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

١٣٢٢-١٤٢هـ

١٩٠٤-١٩٩٩م



ولد مصطفى الزرقاء في مدينة حلب الشهباء سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤ م.

والده الشيخ أحمد بن محمد الزرقاء من أعلام علماء تلك المدينة ، وفي أعلى مراتب العلم ، وأهم مصادرہ ، وكان مشهوراً بالفقه الحنفي بوجه خاص ، يدرّس في الثانوية الشرعية المعروفة من قبل باسم (المدرسة الخسروية الشرعية) وبالمدارس الشرعية الأخرى كالشعبانية والعثمانية والجامع الأموي الكبير.

يقول الدكتور محب الدين أبو صالح : سمعت من أبي الشيخ ناجي أبو صالح – يرحمه الله – وهو من جيل الشيخ مصطفى ورفيقه في طلب العلم أن مصطفى حين يجلس في الدرس على أبيه الشيخ أحمد يأخذ في مناقشته ، فيقول له أبوه : يا مصطفى لا تكثر من هذه المناقشات ، لَمَّا يأت وقتك بعد . وكأن هذه إشارة من الوالد بذكاء ابنه ، وقوة حجته ، و أنه سيكون بفضل الله خلفه من بعده في جميع دروسه . وفعلاً عندما

صار يتخلف عن الدروس لمرضه كان ولده مصطفى يقوم مقامه ، ويحل محله ، وكان المؤهل الأكبر بين جميع تلامذته الذين تتلمذوا عليه . وهذا يدل على مكانة الشيخ مصطفى المبكرة في قدرته العلمية.

درس الزرقا علومه الدينية على شيوخ بلده في المدرسة الخسروية الشرعية ، كما درس العلوم العصرية واللغة الفرنسية دراسة خاصة ، ونال الشهادتين الشرعية والثانوية الرسمية الحكومية ، مما أهله للالتحاق بكليتي الحقوق والآداب طالباً سنة ١٩٣٠م ونال شهادتيهما بتفوق بعد ثلاث سنوات واشتغل بالمحاماة عشر سنوات ، وخلالها حاز دبلوم الشرعية الإسلامية من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً).

الزرقا أستاذ في الجامعة السورية:

عين مصطفى الزرقاء في أول عام ١٩٤٤م أستاذاً لمادة الشريعة والقانون المدني في كلية الحقوق، ومحاضراً في كليتي الشريعة والآداب لمادة الحديث النبوي ، وظل في هذا المنصب إلى سنة ١٩٦٦م حيث أحيل على التقاعد . وألف كتابه المشهور (المدخل الفقهي العام) أو ما يدعوه صاحبه باسم : الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد.

انتخب عن مدينة حلب نائباً في المجلس النيابي السوري لدورتين تشريعتين ، عام ١٩٥٤م ثم ١٩٦١م ، كما أسندت إليه وزارتا العدل والأوقاف في عهود دستورية (في عامي ١٩٥٦م ثم ١٩٦١م).

قال الأستاذ عبد القادر عودة – يرحمه الله – عن كتابه المدخل الفقهي العام : اعتصم الفقه الإسلامي من طالبه في المتون ، وتحصن في الشروح ، واستعصى على طلابه في اللغة المغلقة والأسلوب العقيم . وكان كل من له إمام بالفقه الإسلامي ، وكل من

عانى من قراءة كتبه ، يود أن توطأ للناس هذه الكتب حتى يتيسر لهم قراءتها ، وتسهل عليهم دراستها ، وحتى يستطيعوا أن يوازنوا بين الفقه الحديث وبين الفقه الإسلامي العتيق ؛ ذلك الفقه الغني بموضوعاته ونظرياته واصطلاحاته ، المتميز بدقته وقوته ، ليكون لهم من هذه الموازنة ما يزيد ثقافتهم ، ويوسع آفاقهم ، ويفتح أعينهم ، ويوجههم إلى الطريق المستقيم.

وتابع يقول: لقد نقل الأستاذ الزرقاء الفقه الإسلامي بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسي إلى عصرنا الحديث ، فإذا هذا الفقه الغني القوي الذي ملثماً في ثوبه العتيق القديم يخرج على الناس في ثوبه الجديد فتياً مشرقاً يزاحم الفقه كله بمنكيه ، ويعلن للناس أن فقه الإسلام هو الفقه ، وأن شريعته هي الشريعة ، وأن ما اختاره الله للناس هو الخير كل الخير للناس لو كانوا يعلمون.

الزرقا في المؤتمرات الدولية:

الأستاذ الزرقا يتقن اللغة الفرنسية تحدثاً وكتابة ، ويجيد اللغة الإنكليزية ، ويعرف شيئاً من اللغة الألمانية . وهذه المعرفة للغات الغربية ، إضافته إلى تفوقه العلمي قادتته إلى حضور كثير من المؤتمرات العالمية ، وقد كانت له بصمات واضحة في نتائج تلك المؤتمرات ، نذكر منها ما يلي:

1- في عام ١٩٣٧ م عقد في لاهاي عاصمة هولاندا (مؤتمر الحقوق المقارنة) وكان من نتائجه أن اتخذ المبادئ الثلاثة التالية:

- أ - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام
- ب - اعتبارها حية ، قابلة للتطور.
- ج - اعتبارها تشريعاً قائماً بذاته ، ليس مأخوذاً عن غيره .

٢- في ١٩٤٨م انعقد في باريس (مؤتمر المحامين الدولي)، وانتهى المؤتمر إلى إصدار التوصية التالية :

اعترافاً بما في التشريع الإسلامي من مرونة ، وما له من شأن ، يجب على جمعية المحامين الدولية أن تقوم بتبني الدراسة المقارنة لهذا التشريع ، وبالتشجيع عليها.

3- في عام ١٩٥١م عقدت شعبة الحقوق الشرقية من (المجمع الدولي للحقوق المقارنة) في كلية الحقوق من جامعة باريس للبحث في الفقه الإسلامي تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامي) برئاسة المسيو ميو MILLIOT أستاذ التشريع الإسلامي بجامعة باريس ، دعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية، وكليات الأزهر، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهما، ومن المستشرقين.

وكانت المحاضرات والمناقشات كلها باللغة الفرنسية . وعند انتهاء المؤتمر صرح نقيب المحامين في باريس فقال بالحرف الواحد: أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور ، وبين ما سمعناه في المحاضرات والمناقشات مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادئ، وانتهى هذا المؤتمر بالتوصية التالية:

إن المؤتمرين بناء على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت أثناء (أسبوع الفقه الإسلامي) وما جرى حولها من المناقشات التي ظهر منها بوضوح تقرر :

أ - أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها.

ب - وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات، ومن الأصول الحقوقية ، هي مثار الإعجاب، وبها

يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة ، والتوفيق بين حاجاتها .

الزرقا بين فقهاء المسلمين وعلمائهم :

في الستينيات من هذا القرن أقيم في دمشق (أسبوع الفقه الإسلامي) وقد حضره فقهاء كثيرون من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وكان منهم الأستاذ الزرقاء والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور مصطفى السباعي – يرحم الله الجميع – . وكان فارسا المؤتمر في هذا الأسبوع الفقهي الزرقاء وأبو زهرة، وفي إحدى المسائل الفقهية المعاصرة، وقد تكون مسألة التأمين، اختلف العملاقان اختلافاً كبيراً، وانتصر كل منهما لرأيه، وراح يأتي بالأدلة والبراهين، ولم ينته الرجلان إلى اتفاق .

وسئل الدكتور السباعي في جلسة خاصة عن سبب اختلاف العالمين، ورأيه فيما قالوا، فقال: الأستاذ أبو زهرة مكتبة فقهية، والزرقاء ملكة فقهية. وكأنه رحمه الله يعني أن الفرق كبير بين المكتبة والملكة، ففي المكتبة عشرات أو آلاف المراجع المحفوظة والروايات المسجلة، بينما الملكة هي أول أدوات المجتهد .

الزرقا والبنوك الإسلامية :

كان يقال: إن التحدي الكبير للمسلمين، وللفكر الإسلامي يتمثل في المعاملات الاقتصادية، ويذكر أن أول من أشار إلى هذه المشكلة، وفت الأنظار إليها الأستاذ أبو الأعلى المودودي، يرحمه الله، ورسم الطريق الذي يجب أن يسير عليه الاقتصاد الإسلامي، والبنوك الإسلامية .

كان الأستاذ الزرقا من أكبر الدعاة إلى توجيه البنوك الإسلامية، ووضع أنظمتها في ضوء الشريعة الإسلامية، وكان ساعده الأيمن في ذلك ولده الدكتور محمد أنس الزرقا (حفظه الله) المتخصص في الاقتصاد الإسلامي، وهو اليوم أستاذ في كلية الاقتصاد الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز بجدة .

هذه البنوك الإسلامية نهضت أول الأمر وقامت كتجربة، وقد أصيب بعضها أول الأمر، فتعثرت، ثم توقفت، لأنها لم تكن تملك الكوادر العلمية، المؤهلة بالعلم الصحيح، والثقافة الاقتصادية الإسلامية الصحيحة، فكانوا يأتون بموظفين من البنوك العادية فتقع الأخطاء.

لكن مع توالي الزمن، ونشوء عدد من الكفاءات العالية، المتخصصة في الاقتصاد الإسلامي صارت معاملة هذه البنوك من الصحة والعافية والاستقامة إلى حد كبير .

زد على ذلك أن عدداً من البنوك العادية بدأت تخصص زاوية خاصة معينة لمن يريد أن يتعامل مع البنك وفق الشريعة الإسلامية .

نضرب على ذلك مثلاً بالشيخ الراجحي، صاحب المؤسسة المالية الضخمة في المملكة العربية السعودية، والتي تتعامل مع معظم المؤسسات المالية العالمية، ويشترك فيها آلاف الممولين الحريصين على أن تكون معاملاتهم المالية ربحاً وخسارة وفق الشريعة الإسلامية .

لقد أنشأ في مؤسسته مكتباً خاصاً سماه (مكتب البحوث والدراسات) وجعل على رأسه مصطفى الزرقاء، وعينه مستشاراً دينياً لجميع المعاملات التي تجريها مؤسسته، فكان نعم المستشار المؤتمن. ويذكرون أنه كان يسجل جواباً لإحدى الاستشارات المالية، وحين

انتهى من كتابة الجواب سقط القلم من يده، وخر الزرقاء ميتاً. يرحمه الله.

الزرقا يحصل على جائزة الملك فيصل العالمية :

منح جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤٠٤هـ تقديراً لإسهاماته المميزة في مجال الدراسات الفقهية، وكتابته (المدخل إلى نظرية الالتزام في الفقه الإسلامي) وهو الجزء الثالث من سلسلة الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد .

الزرقا في حفلات تكريمه في المملكة العربية السعودية :

لقد أحب الشيخ مصطفى الزرقاء السعودية والسعوديين، فبادلوه حباً بحب، وراحوا يكرمونه في ندواتهم، واحتفالاتهم، فما إن ترى ندوة رفيعة المستوى، عالية المقام إلا والزرقاء مدعو إليها، متصدر في مجالسها.

مثل: ندوة العالم والأديب والشاعر الدكتور راشد المبارك الأحذية الأسبوعية في الرياض.

وندوة الشيخ عبد المقصود خوجة في جدة التي يكون للشيخ الزرقاء مكان الصدارة، طالما هو في جدة. ولقد كرم هذا الوجيه الثري في إحدى أمسياته الشيخ الزرقاء خير تكريم، وأظهر للناس أن هذا العالم الفذ لم يكن فقيهاً فحسب، وإنما هو شاعر من الطراز الأول .

وندوة الشيخ عثمان الصالح بالرياض ، وهذا الرجل الفاضل له دارة في الرياض، يعقد فيها يوم الثلاثاء في كل أسبوعين ندوة، يحضرها من أحب من شدة الأدب، ومحبي الشيخ عثمان. وغالباً ما تخصص الندوة النصف شهرية لعالم من العلماء، أو أديب من الأديباء ..

وقد خصصت إحدى الندوات لتكريم الأستاذ مصطفى الزرقاء، لا على اعتباره عالماً كبيراً من علماء المسلمين فقط، بل على كونه شاعراً مبدعاً ، له ديوان شعري كامل .

كان عريف الحفل يومذاك الدكتور عبد القدوس أبو صالح، فقد عرف الحضور به أجمل تعريف!.. وأنشد الأستاذ الزرقاء القصيدة تلو القصيدة عن ظهر قلب، وكأنه يقرأ من ديوان بين يديه..

* وكان الشيخ مصطفى الزرقا عضو شرف في رابطة الأدب الإسلامي العالمية ١٤١٤هـ، ونشرت له مجلة الأدب الإسلامي قصيدة بعنوان القرآن العظيم في عددها....

من آثاره الأدبية والعلمية:

- أحكام الأوقاف.
- في الحديث النبوي .
- الاستصلاح والمصالح المرسلة في الفقه الإسلامي.
- الفعل الضار والضمان فيه.
- نظام التأمين ، والرأي الشرعي فيه.
- الفقه الإسلامي ومدارسه (بتكليف من منظمة اليونسكو).
- رسالة بعنوان: عظمة محمد مجمع العظمت البشرية.
- عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية.
- صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق.
- المدخل الفقهي العام ج ١+٢.
- مجموعة فتاوى الشيخ مصطفى الزرقا.

-توفي الشيخ مصطفى الزرقاء مساء السبت ١٩/٣/١٤٢٠هـ، الموافق ٣/٧/١٩٩٩م.
يرحمه الله، ويرحم العلماء العاملين، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين بما يستحقون. إنه
سميع مجيب.

موقع: بدر ناصر الربابة السحيم الحبلاني العنزي – *Bader. N . Al-Rababah*
Kuwait

نقلا عن مقال للدكتور أ.د.بكري شيخ أمين في مجلة الحج والعمرة السعودية (بتصرف)